

ندوة إذاعية - إذاعة دمشق - ندوات مختلفة - الندوة ٤٠ : العبادة مع الأستاذ محمود جماعات.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-١٢-٢٧

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته، والصلوة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين وعلى آله الطيبين وأزواجه الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

أيها المستمعين الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته اسمحوا لي في بداية هذه الندوة أن أرحب بالأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق والمدرس الديني في مساجد دمشق.

فضيلة الدكتور أهلاً بك الدكتور النابلسي يا سيدى نحن الآن في رحاب شهرنا الفضيل المبارك كل عام وأنتم بخير.  
وأنتم بخير.

هذا هو شهر الصيام وشهر القرآن شهر العبادة، والصوم هو العبادة وهذه العبادة عندما شرعها الباري عز وجل على عباده لم تكن حكمة التشريع فقط أن يكون عبادة بين المخلوق وخلقه إنما أيضاً العبادة سلوك، من هذا الباب لو تحدثنا عن الصوم كعبادة ثم العبادة بشكل عام. باسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين، بدئ ذي بدء ينبغي أن نفرق بين العبادة والطقوس في الديانات الوضعية هناك طقوس حركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها، إنما الإمام الشافعي رحمة الله تعالى يقول العبادة معللة بمصالح الخلق. وأحد أكبر علماء المسلمين يقول: الشريعة عدل كلها رحمة كلها حكمة كلها مصلحة كلها وأية قضية خرجت من المصلحة إلى المفسدة ومن العدل إلى الجور ومن الحكم إلى خلافها ومن الرحمة إلى القسوة فليس من الدين ولو أدخلت عليه بألف تأويل وتأويل.

نحن نفرق بدئ ذي بدء بين دين سماوي من عند خالق الكون وبين دين وضعى من صنع البشر، فال العبادة تابعة لدين الله والإنسان في أدق تعاريف العبادة هو عبد الله عز وجل، هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبة قلبية أساسها معرفة يقينية تقضي إلى سعادة أبدية، بل إن العبادة هي علة وجود الإنسان على سطح الأرض، لماذا أنا هنا ؟

لو أن إنساناً سافر إلى بلد ونزل في بعض الفنادق واستيقظ صبيحة اليوم الأول وتناول طعامه وارتدى ثيابه وسأل إلى أين أذهب ؟ نسأله نحن لماذا جئت إلى هنا ؟ لو جئت طالب علم اذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن جئت تاجرًا اذهب إلى المعامل والمؤسسات، وإن جئت سائحاً اذهب

إلى الملاطفات والمتزهات، فلا تصح الحركة إلا إذا عرف السبب، ما علة وجود الإنسان على سطح الأرض؟

ذلك أن الإنسان قد يخطئ وقد يستمر في خطأه فيقع في شر عمله قال تعالى:  
﴿قُلْ هَلْ نُنَيِّكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾

[سورة الكهف]

ذلك أن الإنسان مفظور على حب وجوده وحب سلامته وجوده وحب كمال وجوده وحب استمرار وجوده، وانطلاقاً من هذه الفطرة هو يحرص على سلامته وسعادته لكن الشقاء يأتي من أين؟ من الجهل بل إن قضية أهل النار الأولى هي العلم قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعْيِ (١٠)﴾

[سورة الملك: الآية ١٠]

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.  
ما من سؤال أكبر في حياة الإنسان من أن يسأل نفسه لماذا أنا في الأرض؟ القرآن الكريم أجاب عن هذا قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾

[سورة الذاريات: الآية ٥٦]

وهذه اللام لام التعلييل يعني علة وجودكم يا عبادي أن تعبدون والعبادة كما قلت قبل قليل طاعة، خالص الطاعة لله، منتهى الطاعة لله لكنها طاعة طوعية وليس قسرية لا إكراه في الدين، ممزوجة بمحبة قلبية من عبد الله ولم يحبه ما عبده ومن أطاع الله ولم يحبه ما عبده ومن أحبه ولم يطعه ما عبده.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال شنيع  
لو كان حبك صادقاً لأطعنه إن المحب لمن يحب مطيع

إذا العبادة علة وجودنا والحكمة من العبادة أن نسعد بالله في الدنيا والآخرة، لأن في هذا التعريف كما أسلفت قبل قليل جانب معرفي والمعرفة هي الحاجة العليا في الإنسان وجانب سلوكى وهو الأصل في العبادة. تعلموا ما شئتم فوالله لم تؤجروا حتى تعلموا بما علمتم.

ثم الجانب الجمالي هو الثمرة، الحقيقة يقول بعض العلماء في الدنيا جنة من لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب من الله أنا أحياناً أدعوا وأقول: اللهم أخرجننا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ومن وحول الشهوات إلى جناتقربات.

فالعبارة وهذا تعريفها فيها جانب سلوكى هو الأصل وجانب معرفي هو السبب وجانب جمالي هو الغاية والغاية أن نسعد في الدنيا والآخرة، أما ما نراه من ألوان الشقاء هو بسبب خروج الإنسان

عن منهج الله، ما من مشكلة على وجه الأرض وأنا أعمم إلا بسبب مخالفة تعليمات الصانع لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها لأنها الجهة الخبيرة قال تعالى:

﴿وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤)

[سورة فاطر: الآية ١٤]

إذاً الجانب السلوكي هو الأصل والمعرفي هو السبب والجمالي هو الغاية، قال تعالى:

﴿إِنَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِذَكْرِ خَلْقِهِمْ﴾

[سورة هود: الآية ١١٩]

يعني خلقهم ليرحمهم، أما من يعترض ويقول الدنيا كلها مصائب، أنا أقول: حينما أسس ثانوية الهدف تعليم الطلاب أما حينما أسلك سلوك التأديب لطالب ليس الأصل في هذه الثانوية هو التأديب الأصل هو التعليم، أما حينما ينحرف الإنسان يستأهل التأديب والتربية، قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَغْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٠)

[سورة الشورى: الآية ٣٠]

في العبادة شيء دقيق جداً هو أن المسلمين اليوم فهموا العبادة شعائرية أنهم يصومون ويصلون ويحجون ويؤدون زكاة أموالهم وينطقون بالشهادة مع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهادَةٍ أَنَّ لَهُ إِلَهًا إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجَّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ ))

[البخاري، مسلم، الترمذى، النسائى، أحمد]

الإسلام بناء شامخ دعائمه هذه العبادات، أما أن نفهم الإسلام هو هذه العبادات ليس غير هذه مشكلة كبيرة في فهمنا للإسلام، لأن الناس يؤدون هذه العبادات وحياتهم في واد آخر سلوكهم كسب أموالهم إنفاق أموالهم استمتاعهم في الحياة مناسباتهم السارة الحزينة سفرهم إقامتهم كلها وفق نمط غربي، وفق نمط بعيد عن الدين.

هناك من يعتقد أن سلوكهم في القيام بهذه العبادات قد يشفع لهم عند الله السلوك الآخر.

الآن دخلنا في صلب الموضوع أنا أريد أن أبين أن العبادات الشعائرية والتي منها الصيام لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية وطالبني بالدليل لأنه لو لا الدليل لقال من شاء ما شاء بل إن موضوع الدين أخطر موضوع في حياة الإنسان هو مصيره لا يجرؤ إنسان على وجه الأرض أن يقول في الدين برأيه إنه دين الله عز وجل، حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةَ بِيضاً فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ؟ جِلَّهُمْ لَنَا.....))

[ابن ماجه]

عمل كالجبل.

قالوا يا رسول الله جلهم لنا أي صفهم لنا القضية خطيرة.

قال:

((أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جَلَّتْكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنِ الَّذِينَ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكُنْهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انتَهُوكُوهَا))

إذاً لم يستفيدوا من صلاتهم إطلاقاً لأنهم ما ضبطوا سلوكهم وفق منهج الله، هذه الصلاة، الصيام كما تفضلت يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لَمْ يَدْعُ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري، الترمذى، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

الحج:

من حج بمال حرام وضع رجله في الركاب وقال ليك الله ليك ناداه مناد أن لا ليك ولا سعيك وحجك مردود عليك.

الزكاة:

﴿ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥٣)

[سورة التوبه: الآية ٥٣]

تحدثت عن الصلاة والصيام والحج والزكاة، النطق بالشهادة:

من قال لا إله بحقها دخل الجنة، قيل وما حقها؟ قال أن تحجزه عن محارم الله.

أنا أديت بخمسة براهين على أن هذه العبادات الشعائرية الأساسية لا تصح ولا تقبل ولا نقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

هناك دليل الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

بارك الله بكم، الآن دليل عام النبي صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه وكان مربياً فذاً وكان محاوراً ذكياً، من أساليب التعليم الحوار سأل أصحابه:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصَيَامٍ وَرَكَأَةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَنَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعَطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَيَبْتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخْذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذى، أحمد]

هذا دليل عام.

امرأة تقول إنها تكثر من صلاتها وصيامها وصدقها غير أنها تؤذى غيرها بلسانها قال: هي في النار.

(( عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عذبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال فقال والله أعلم نا أنت أطعمنتها ولما سقيتها حين حبستها فلما أتت أرسنتها فلما كانت من خشاش الأرض ))

[ البخاري، مسلم، الدارمي ]

هذا الذي يجري في العالم اليوم من قتل للأطفال وهم للمساكن في هرة دخلت النار من أجلها مما قولك فيما فوق الهرة.

وما قولك بالذين يتجنون على الآخرين، يبنون مجدهم على أنقاض الآخرين.

هناك من يتتجن على غيره في عصرنا هذا وفي أيامنا هذه وفي المناسبات الكثيرة التي نشهد لها حالياً يقولون وهم طبعاً أعداء الإسلام يقولون إن دين الإسلام هو دين عنصري هذا الذي وجه إلى الرحمة بكل ذات كبد رطبة مما رأيك بالإنسان فأين العنصرية في دين الإسلام؟ ما ضر السحاب نبح الكلاب وما ضر البحر أن ألقى فيه غلام بحجر ولو تحول الناس إلى كناسين ليثيروا الغبار على الإسلام ما أثاروه إلا على أنفسهم ويبقى الإسلام شامخاً لأن الإسلام هو دين الله. وأنا أقول لإخوتي دائماً: لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله، إن الله يقدر أن ينصره بأعدائه ولكن لنقلق نحن ما إن سمح الله لنا أن ننصره أو لم يسمح وأن نكسب شرف نصرة الله. وهذه العبادة التعاملية والشعائرية مهمة جداً لكن هناك من يفهم العبادة خاصة بهذه الشعائرية فضلاً عن أنها تتعلق بالشعائريات وتتعلق بالمعامليات لكن العلماء وقفوا وقفات متأنية عند مفاهيم العبادة هناك عبادة الهوية أنا من؟ أقامني غنياً في المجتمع عبادتي الأولى إنفاق المال هو يتي غني فعبادتي الأولى إنفاق المال، أقامني قوياً بيدي الأمر والنهي أنا في منصب رفيع عبادتي الأولى إحقاق الحق وإنصاف المظلومين، أقامني عالماً عبادتي الأولى تعليم العلم وأن لا أضن به. أقامني صانعاً عبادتي الأولى إتقان الصنعة.

إنما أهلك الصنعة قول غد وبعد غد، المماطلة، إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، بل إن هناك حقيقة دقيقة أن أعمالنا اليومية حرقنا مهمنا إذا كانت في الأصل مشروعةً وسلكتها بها الطرق المشروعة وابتغينا منها كفاية أنفسنا وأهلينا وخدمة الناس عامةً ولم تشغلنا عن فريضة نؤديها أو طاعة نطيعها أو عمل صالح نبتغي به وجه الله انقلب حرقنا ومهمنا إلى عبادة، بل إن المؤمن عاداته عبادات بينما المنافق عباداته سيئات، الحياة فيها توحد أنا حينما أخدم المسلمين من خلال دعوة إلى الله زيد يخدم المسلمين من خلال طبه، هذا من خلال هندسته، هذا من خلال تعليمه، هذا من خلال تجارته، هذا من خلال زراعته، أنا حينما أزرع المزروعات وأضيف إليها الهرمونات المحرمة كي يكبر حجمها وترتفع أسعارها أنا ما خدمت المسلمين أساءت إلى صحتهم، إذاً العبادة هي حينما أستغل الهوية التي أقامني الله بها عالم غني قوي، امرأة أقامني امرأة عبادتي الأولى رعاية الزوج والأولاد قال عليه الصلاة والسلام:

اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله.

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام، فالمرأة التي تعنتي بزوجها وأولادها لأنها تعبد الله فيما أقامها هي إذاً في ذروة الإسلام أما حينما تفهم المرأة الأمر بشكل أو بأخر فقد خرجم عن منهج الله عز وجل حينما تزيد المرأة أن تكون في وضع يبتعد بها عن وظيفتها التي أقامها الله فيها هذه لا تعبد الله حق عبادته طبعاً هذا لا يعني أن لا تطلب العلم وأن تكون متقةً وأن تكون في أعلى مستوى لكن مهمتها الأولى رعاية الزوج والأولاد.

الطيار لا يمكن أن نتسامح معه أن يدع كبين القيادة ليقوم بعمل آخر من عمل المضيفين، المضيفين لهم أعمال والطيار له عمل برقبته وبذاته كل هؤلاء الركاب.

سيدي الكريم الحقيقة أدركنا الوقت حالياً ونحن تحدثنا آخر ما تحدثنا عبادة الهوية وذكرتم هناك أنواعاً أخرى لهذا ما نتابعه إن شاء الله في الحلقات القادمة أعزائي المستمعين اسمحوا لي أن أنووجه في نهاية هذا اللقاء بالشكر الجزييل للأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي الأستاذ المحاضر في كلية التربية في جامعة دمشق والمدرس الديني في مساجد دمشق فضيلة الدكتور شكرأً لكم إلى اللقاء إن شاء الله الجمعة القادم.  
شكراً جزيلاً.

والحمد لله رب العالمين